الفصل السابع

التفكير والحساسية الدينية

ليس لدى الأسبان تاريخ مناسب للأفكار والعواطف الدينية فى أسبانيا المسيحية فى العصور الوسطى ولن أحاول الآن أن أملأ هذا الفراغ الشاسع. المهم أن أسبانيا العصور الوسطى لم تملك أداة التعبير. إلا أننا سنلاحظ أن قطالونيا وأراجون وامتدادهما «بروفنسا» سيفتحون الطريق للشعر العربى الغزلى والتصوف الإسلامى، بينما لا تعرف قشتالة التصوف والشعر الغزلى إلا فى القرن السادس عشر. إن عدم مبالاة قطالونيا وأراجون بمعاداة الإسلام فى أول الأمر فتح الباب لدخول إسلاميات يتقبلها الناس بعكس قشتالة. ويظهر رايموندو لوليو الذى يعلن احتذاءه التصوف الإسلامى ويكتب بأسلوب مليء بالشاعرية كظاهرة فريدة فى العصر الوسيط بينما قشتالة - التى ترى فى خطيئة لذريق [1] سببا فى ضياع أسبانيا وسقوطها فى يد الإسلام - حرمت تسرب الغزل إلى شعرها ودافعت عن نموذج الطهر والعفاف فلم تكن فى ظل انشغالها بحرب الاسترداد إلا بيئة تسمح بنشوء الملاحم. ويبدو هذا الاتجاه الأخلاقى الوطنى فى الأعمال التى تمت ترجمتها إلى الأسبانية فى عصر ألفونسو العالم، أنها أعمال تعليمية فى الغالب. وعندما يكتب ألفونسو شعرا غنائيًا فإنه يكتبه بالجليقية اللغة الأقرب إلى الغنائية والمتأثرة بشعر الغزل العربى مباشرة أو باحتذاء من تأثر بهذا الشعر مثل بروفنسا. إن الترجمة تدفع عجلة اللغة

---

(١) تحولت خطيئة لذريق إلى أقصوصة شعبية أسبانية وردت فى المصادر العربية وملخصها وجود بيت مغلق فى طليطلة كان يضع على بابه كل ملك قفلا جديدًا حتى تكاثرت الأقفال فلما ولى لذريق كسر الأقفال وسط رعب عام. فلم يجد فى البيت إلا تابوتا عليه قفل فأمر بفتحه يحسب به كنزا، فلم يجد إلا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب عليهم العمائم.. وفى أعلاها أسطر مكتوبة بالأعجمية، فقرئت فإذا فيها: إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت، وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من الصور فإن هذه الأمة المصورة.. تدخل الأندلس فتملكها. (راجع: نفح الطيب «نشرة إحسان عباس» جـ١ ص ٢٥١) كذلك اغتصب لذريق ابنة جوليان صاحب سبتة فوقع فى الدنس، وجلب جوليان - لخطيئة لذريق - العرب للثأر (النفح جـ١: ٢٣٢-٢٣٣، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ١٣١ - ١٣٣، ١٥٦).

القشتالية إلى الأمام وتقوى قدرتها التعبيرية ولكن لا يظهر التعبير عن النفس غنائيًا ولا تبدأ الأنظمة الصوفية إلا فى القرن السادس عشر، ورغم ذلك فقد عبر القشتاليون عن أشياء عاطفية فحسب طوال القرون الوسطى، سواء كانت هذه العواطف حبا إلهيا أو إنسانيا لكنهم فضلوا موضوعية الأفكار الأخلاقية فى هذا التعبير. أو بمعنى آخر: الشعر القصصى وبصفة خاصة الملحمى على أن يكون موضوعه وطنيًا أو تاريخيًا، وهذا الأسلوب الملحمى يقدم ملامح فريدة وحتى تفهم ذلك أسميت هذا الأسلوب «الأسلوب الفلكى» لأن التعبير الأدبى يدور فى فلكه موضوعات موضوعية (أسطورة - أخلاقيات- رموز.. إلخ) بظاهرة راهنة تجعل الإنسان داخلا عضويا فى نسيج هذه الموضوعات. وهذا الأسلوب الفلكى للأدب إرهاصة لصيغ أوسع للحياة أو لشىء مشابه جدا لذلك الأسلوب فى الأدب العربى فيما يتعلق بنظامه الداخلى. وإنه من غير المفيد فى هذه الحالة دراسة الأعمال الأدبية الأسبانية وإثبات مصادرها العربية، ولدينا مثال: لقد أثبت أسين بلاثيوس بما لا يدع مجالا للشك أن دانتى استقى مصادر إسلامية بينما إيطاليا لم تخضع للإسلام ولم تعايشه، ولم يكن فلذة من بدنها. إذن ينبغى البحث عن أشياء أعمق وأعم وراء فكرة التأثير، أشياء التقى عندها الإنسان فاستقى ظواهرها، وهكذا يمكن إقامة التاريخ لأننا لا نبحث عن تاريخ أفكار، حيث لو صنعنا ذلك ما كان التاريخ إلا ناقصًا ومجالا فقط للتشريح والتحنيط.

لقد خدم المسيحى المسلم فأغرته حضارته الإسلامية فى كثير من جوانبها المتفرقة ففكر فى كثير من المحاذير ليواصل حياته فى اتجاه آخر، هذه العناصر الثلاثة: «خدمة - إغراء - محاذير» ينبغى أن توضع على مرمى نظرنا ونحن نفحص ظاهرة الحياة فى العصور الوسطى.

فى حقل التجربة الدينية والأخلاقية مضى يلتقى مرارا ويبتعد مرارا أخرى المسيحيون والمسلمون. وقد رأينا من قبل ألفونسو العالم ينطلق - فى تسامحه - من صيغ قرآنية وأن الزهاد المسلمين المحاربين انقلبوا إلى فرسان تحت لواء أنظمة عسكرية. وقد تكاملت فيها الحرب والقداسة على هيئة لم يعرفها المسيحيون، وإن كان هذا ليس أكثر من هرمونية الروحى مع المادى، والموضوعى مع الوجودى، هرمونية بين الوقائع والقيم المضادة، الشىء الذى لم يعرفه الغرب فى العصور الوسطى، ولقد حاكى الأسبان ذلك. والآن جاء

الدور لنلقى نظرة على بناء التصوف والحياة الروحية الأسبانية العربية، أيضًا على الأساس الثيولوجى لهذا البناء.

سنمضى فى طريق مقارن يحاول أن يضع الإسلام فى مواجهة المسيحية، والمسيحية فى مواجهة الإسلام.

إن النظر إلى شخصية النبى «محمد» والقرآن معًا تؤدى إلى حقيقة هامة: إن النص القرآنى نص شخصى تضمن حياة شخص، هو النبى، وفى المسيحية - فى أصولها الأولى - كان الأب بالنسبة للابن والكلمة مثلما سيكون الله فيما بعد - وعند ظهور الإسلام - بالنسبة لمحمد وكتابه. لكن عيسى الإنجيلى يشير لما يرى ببصره ولما يسمع بأذنه دون أن يكون لشخصه ذاته قيمة جوهرية، بفرض أن المسيحية لا ترتكز على عدد الأناجيل أو ترتيبها مثلما يرتكز الإسلام على عدد السور والآيات وترتيبهما ذلك الترتيب التوقيفى الذى سمع عن النبى بعد تمام القرآن، حيث إن القرآن ليس إلا وحيا يوحى به إلى النبى الذى لا ينطق عن الهوى[1] وطبقًا لبعض الثيولجيين المسلمين فمحمد «صوت الله» قد خط الله فى أزله علاقة بين شخصه - شخص النبى - وبين القرآن، علاقة أزلية، هى نفس العلاقة التى بين المصباح ونوره. إن رسالة عيسى الإنجيلى أكثر جوهرية من شخصه بعكس الحقيقة المحمدية التى هى فوق القرآن، والتى أطلق عليها العقل الأول «الأعلى»، هو أول فيض إلهى ينطبع فى كل عقول البشر، من ثم الكتاب من الله ومن محمد وكل شىء يتصل بالألوهية هو نفس الله، فالدين يشخص ويجرد فى آن. ونفى الله يأتى لكل الأشياء التى حقيقتها فى نفسها لا شىء لأنها لا تقوم بنفسها وإنما تقوم بالله. ويترتب على ذلك أن التنزل والحضور الإلهى فى العالم يحسه المحمدى «المسلم» ويتمتع به بطريقة تستحيل على المسيحى الذى يهتم أكثر بسلوك مضاد، هو الصعود لله خروجًا من زوال العالم المحسوس وشقائه: المسيحى دائمًا يتجول مسحوقا بألم عبرى، ألم الخطيئة الأولى التى تجاهلها المسلم حيث تم تخليصه منها بإيمانه. إن محمدًا قد مد قنطرة بين العالم الغيبى والعالم الحاضر، وقد وسع هذه القنطرة وأسسها الثيولوجيون على أعمدة نظرية أفلوطينية. إن

(١) ﴿والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى﴾ (النجم: ١-٤). . ووصف القرآن بأنه نص شخصى يراد به أنه نص ثابت محفوظ لا يدخله تعديل وأنه يمثل الصورة النهائية التى أخذها المسلمون عن النبى طبقا لما أوحى إليه، وليس مثل الأناجيل فى اختلاف نسخها وعدم صدورها عن المسيح وإنما عن حواريه.

أشياء هذا العالم لها نظير هناك وراء القنطرة والعكس. إن وصف الجنة ينقل من هذا العالم أنهاره وفواكهه وملذاته فلا فرق جوهرى بين هذا العالم، والعالم الآخر، أى بين الحقيقة والترشيح. كذلك تحمل العقيدة الدينية أسس الوشائج بين وجود الإنسان وموضوعية ما يعيشه، وكلا الأمرين يقومان على وحدة العيش والتعبير.

ما سبق يعنى أن لفظة دين تستجلب للتفكير إجمالى الحياة لأن العقيدة الدينية الإسلامية تحيط بكل شىء، واللفظة نفسها عند المسيحيين لا تعنى أكثر من مجموعة مؤسسات مدنية وقضائية وسياسية. كما أن الإنجيل بلغته اللاتينية ابتعد عن المؤمنين المسيحيين فى مقابل القرآن بلغته الحية التى هى لغة العرب فى الماضى ولغتهم حتى الآن. فمما لاشك فيه أن القرآن يحد من الحرية، بمعنى تعلق مشيئة الإنسان بمشيئة الله وضرورة أن يطيع الله ورسوله وأولى الأمر. أى أن وجود الله دائم فى حياة الإنسان، مزيلا لإرادته بإرادة الله، وبالتالى فالله فى حالة خلق أزلية، حيث إنه خالق كل شىء بما فى ذلك أعمال الإنسان. إذن ففعل الله فى هذه اللحظة هو فعله عند الخلق الأول مما يؤدى إلى عدم وجود علل ثوان. من ثم فالطبيعة والإنسان لا يمكن قبولهما كما هما. فكل ما يوجد يمكن تمثيله بنقطة غير قادرة على الاستمرار بنفسها فى خط يستقيم إنما تستطيع ذلك بالدفع الإلهى، فالنقطة أو اللحظة (أ) يمكن أن تتبدل فى (ب) أو العكس، أى أن الذات يمكن أن تكون موضوعًا أو الموضوع ذاتًا وفى موقف كهذا يتنازل الإنسان عن خلق شىء ذى وجود موضوعى ونهائى لأن الله هو الأوحد الذى يفعل ذلك والإنسان ليس له أن يضطلع لمنافسته. والمناسب فقط هو خلق وقائع ذات قطاعات مفتوحة، وأشكال تبدو كزهرة أو حيوان - ولكن بلا حدود تقطع الاحتمالات - أو رسومات مفتوحة وغير محدودة فى الأرابيسك أو الأعمدة أيضًا التى لا نهاية لها تعيد نفسها دوما فى مسجد قرطبة أو الحكاية التى لا تنتهى أبدًا فى ألف ليلة وليلة أو تعود دائمًا لبداياتها كما فى كتاب «الحب الطيب» لهيتا Hita.

فكل شىء فى العالم صغر أو كبر له قيمة، ومن ثم يقوم على الله ويستقبل التنزلات الإلهية فى كل نقطة، ولحظة من وجوده وينطبق الأمر على الإنسان يبدأ نشاطا ما. كل شىء يتضمنه فيض الخلق الإلهى المستمر، وكل شىء لحظة عابرة تقفز نحو اللحظة التالية وكل اللحظات زائلة كما هى مشروعة، فالوعى الشخصى يتضمن هكذا حياة الأشياء

والأشخاص المجاورين. إن الإسلام عالم حسن جوار حيث يعاشر الشحاذ السيد العظيم، ويتبادل فيه العالم السفلى مع العالم العلوى.

إن الحجر أو العصفور - مثلا - لا يعبر عن نفسه بينما يفعل الإنسان، ولذا يحدث عندما يتكلم هذا - الإنسان - أو يكتب يجد نفسه مع كم هائل من محتويات وعيه، ومن ثم يضخم بقدر ما يتأثر عن قرب أو عن بعد. فالكتاب العرب فى القرن العاشر (مثل المسعودى فى مروج الذهب) يحملون عملهم مجرى من الأشياء تحيط بمناطق من العالم بعيدة المتناول فى وقت واحد لأى شخص من القدماء. ويعزى ذاك للاعتقاد فى الاتصال الدائم والحميم للأشياء بالله. إن الوعى الفردى يتضخم بغير قياس من ثم يعرش على الحياة من حوله، إنه وعى رحالة دون تمركز ثابت به تعطش يعيش فى حالة تبدل حسبما يمكن أن نرى عند ابن حزم وتلميذه قمص هيتا.

إذن من المفهوم لماذا يلجأ مفكرو الإسلام - عندما يتفكرون- إلى الأفلوطينية، فلسفة بث الحياة فى كل شىء، أو إلى ديمقريطس وفلسفته الذرية، أو إلى كل فلسفة فى اليونان أو الشرق تتصاهر مع طريقتهم فى رؤية الحياة. إن القول باحتكاك العرب بالإغريق فى مصر وسوريا هو سبب لجوئهم إلى هذه الفلسفة لا يفسر وحدة إنجاز بهذه العظمة[1].

إن الوعى الإنسانى يتكثف كتعويض عن تلك العقبة نفسها، المتمثلة فى صعوبة إحراز أبنية ثابتة وموضوعية. ولهذا مثلا يلجأ الحلاج فى أزمته، كما يفسر ذلك ما سينيون فى تحديد العلاقة بين العالم والله فكرة الذرة كعضو وحيد وأخير لواقع كل شىء مخلوق والذرات وترتيبها فى خلق جديد فى كل لحظة لتشكيل الأجسام بفعل الله[2].

إذن الفلسفة والدين يتشابكان فى التصاق وثيق، فلا تعتمد الفلسفة على معرفة ثقافية ولا فكرة موضوعية، إنما على «ذرة القلب». هنا ينبغى الإشارة إلى وجود فلسفات

---

(١) إن من أهم إنجازات كاسترو فى هذا الكتاب فصل العامل الجغرافى فصلا نسبيا فمثلا هنا اللقاء الجغرافى بين العرب واليونان يؤدى إلى تقديم ما يمكن أن نسميه «المتاح» والمتاح لا يعنى بالضرورة تفسيرا لتبنى أمة له، فكم من أمم أهدرت ما أتيح لها. فاللقاء الجغرافى يمثل نقطة الصفر بما يقدمه من «المتاح» ولكن تركيبة الإنسان ورؤيته للعالم هى التى تحد اختياره من «المتاح» بجانب كيفية احتواء المختار وتعديله ليناسب احتياجات الإنسان ورؤيته. وإذا لم يوجد «المتاح» الخارجى فالإنسان يخلق من واقعه ما يسد احتياجاته أى أن «المتاح» من الواقع أيضًا يسقط العامل الجغرافى مفسرًا للتأثر وكيفيته.

(٢) إن فكرة الخلق الجديد يقدمها ابن عربى بتوسع بدعم فكرة أميريكو كاسترو. كمثال راجع الفتوحات جـ١ ص ٧٠٢ - ٧٠٣، جـ٣ ص ١٩٧ - ١٩٨، والفصوص (فص حكمة سليمانية) ص ١٥١ - ١٦٠.

إسلامية غير ما ذكرنا، وهى فلسفات علامة وأبعد ما تكون عن الدين، وكذلك أبعد ما تكون عن الشعبية وعن غرض دراسة علاقة الإسلام بالمسيحية الأسبانية. أما الفئات التى تنضوى تحت النظام الفلسفى الذى فصلناه فهى الصوفية والغنائية (الشعر) والسير الذاتية، وتكامل الوعى مع إجمالى الإنسان والظروف المحيطة به والذى يسميه ابن عربى «العيش بكل كينونته».

إن المسيحى الذى لم يتأثر بالإسلام يعيش فى عالم واضح المعالم خلقه الله فى ثبات كما أنه يعتمد على حرية داخلية وفى روح «مروحنة Espirtuado» لكنيسته التى تفصل بين الحق والباطل وتنظيم العالم فى هيراركية تتدرج من العالم السفلى إلى الله محددة القيم المختلفة لكل سلوك إنسانى. أما المسلم فإنه - على العكس من المسيحى - عليه أن يحمل ثقل حياته فى سويداء «ذرة قلبه» بوعى فسيح معبر عنه للروح «المروحنة» تمارس عملها حل نفسها، فالحياة والعالم غير منفصلين هكذا كتلك الناس الذين يلاحظون دورة دمهم فى عروقهم.

إننا إذا تأملنا الآداب غير الإسلامية (أو غير المتأثرة بالإسلام) فى القرون الوسطى لوجدناها تعطى تعبيرا هادئًا. أما الآداب الإسلامية (وما تأثر بها) فهى بلا حدود ولا تحفظات تفيض بالاندفاع والحماس. الغربى سيشعر بهذا الأسلوب كشىء شعبى ومبتذل، ولعل الإنجليزى يعلق عليه «غير رسمى Informal» أو يقيمه بأنه واقعى أو طبيعى أو يصدم. ولكن ذلك يشبه دهشة من يرى مهارة السمك فى العوم.

ثم يعرض الكاتب نصوصا لفيلسوف بعيد عن أسبانيا فى ميلاده وحياته، هو ابن سينا، نراه فى هذه النصوص يخلط بين الحقائق العلمية ومشاهداته الشخصية لها حتى تتحول تأملاته الذاتية أحيانا كبراهين، كأنما يقنع صديقًا له بأمور شخصية بينهما متخليًا - دون وعى - عن كونه عالمًا وفيلسوفًا.

ويواصل أميريكو كاسترو عرض فكرته بتقديم ترجمات لاتينية لمترجمين غير أسبان لتلك النصوص السابقة، ويعرض كيف أن المترجم اللاتينى يختزل النصوص مستخرجا كل ما فيها من حقائق موضوعية ضاربًا عرض الحائط بكل ذاتيات ابن سينا فيما يترجمه له. إن هذا هو الفارق بين المسلم - ومن طُعِّم بصيغ حياته من أسبان - وبين المسيحى الأوربى. الأول لا يذكر وقائع وإنما يذكر أنه عاش الوقائع، والثانى يذكر وقائع باردة

محددة. وهكذا فعل المترجمون الفرنسيون نفس الشيء عندما ترجموا كوميديات كاتب المسرح الأسباني لوبي دي فيجا. ومثل لوبي دي فيجا كل أدباء ومفكري أسبانيا. ولننظر كيف يعبر صوفي مسلم في أدبه عن عيشه للحياة في كتابته لسيرته الذاتية دون أن يكون متعمدا أن يكتبها لنرى كيف أن الأدب الصوفي ديني بالدرجة الأولى، أيضًا لنرى عجز الآداب الغربية المسيحية المعاصرة أمام هذا الصوفي عن التعبير عن الواقع الراهن الذي يظهره كاتبنا الصوفي المسلم منغمسًا فيه عبر تعبير متمهل واثق. إن هذا الكاتب هو ابن عربي في مقدمة ديوان شعره «ترجمان الأشواق» حيث يقول: «فإني لما نزلت مكة سنة خمسمائة وثمان وتسعين ألفيت بها جماعة من فضلاء، وعصابة من الأكابر الأدباء والصلحاء بين رجال ونساء، ولم أر فيهم من فضلهم مشغولا بنفسه، مشغوفا فيما بين يومه وأمسه، مثل الشيخ العالم الإمام، بمقام إبراهيم عليه السلام، نزيل مكة البلد الأمين مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجال الأصفهاني، رحمه الله تعالى وأخته المسنة العالمة شيخة الحجاز فخر النساء بنت رستم. فأما الشيخ فسمعنا عليه كتاب أبي عيسى الترمذي في الحديث وكثيرا من الأجزاء، في جماعة من الفضلاء، كان -رحمه الله تعالى- ظريف المحاورة لطيف المؤانسة، ظريف المجالسة، يمتع الجليس، ويؤانس الأنيس، وكان له رضي الله عنه، من أمره شأن يغنيه، فلا يتكلم إلا فيما يعنيه، وأما فخر النساء أخته بل فخر الرجال والعلماء فبعثت إلينا، لأسمع عليها، وذلك لعلو روايتها، فقالت: فني الأمل، واقترب الأجل، وشغلني عما تطلبه مني من الرواية الحث على العمل، فكأني بالموت قد هجم، فأقرع سن الندم. فعندما بلغني كلامها كتبت إليها أقول شعراً:

حـــالي وحــــالك في الرواية واحــــد

مـــا القـــصـــد إلا العلم واســـتـــعـــمـــاله

فأذنت لأخيها أن يكتب لنا نيابة عنها إجازة عنها في جميع روايتها. فكتب -رضي الله تعالى عنه وعنها- ذلك ودفعه لنا وكتب لنا جميع مسموعاته إجازة عامة وكتبت إليه من قصيدة عملتها فيه قولي:

ســـمـعت التـرمـذي على المكين　　أمـــام الناس في البلد الأمين

وكان لهذا الشيخ، رضي الله عنه، بنت عذراء، طفيلة هيفاء، تقيد النظر، وتزين المحاضر والحاضر، وتحير المناظر، تسمى بالنظام وتلقب بعين الشمس والبهـا، من

العابدات العالمات السابحات الزاهدات شيخة الحرمين، وتربية البلد الأمين الأعظم بلا مين، ساحرة الطرف، عراقية الظرف، إن أسهبت أتعبت، وإن أوجزت أعجزت، وإن أفصحت أوضحت. إن نطقت خرس قس بن ساعدة، وإن كرمت خنس معد بن زائدة، وإن وفت قصر السموأل خطاه، وأغرى ورأى بظهر الغرر وامتطاه. ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض، السيئة الأغراض، لأخذت فى شرح ما أودع الله تعالى فى خلقها من الحسن، وفى خلقها الذى هو روضة المزن. شمس بين العلماء، بستان بين الأدباء، حقة مختومة، واسطة عقد منظومة. يتيمة دهرها، كريمة عصرها، سابغة الكرم، عالية الهمم، سيدة والديها، شريفة ناديها، مسكنها جياد، وبيتها من العيدن السواد، ومن الصدر الفؤاد. أشرقت بها تهامة، وفتح الروض لمجاورتها أكمامه، فنمت أعراف المعارف، بما تحمله من الرقائق واللطائف. علمها عملها، عليها مسحة ملك وهمة ملك، فراعينا فى صحبتها كريم ذاتها مع ما انضاف إلى ذلك من صحبة العمة والوالد، فقلدناها من نظمنا فى هذا الكتاب أحسن القلائد بلسان النسيب الرائق، وعبارات الغزل اللائق، ولم أبلغ فى ذلك بعض ما تجده النفس، ويثيره الأنس، من كريم ودها، وقديم عهدها، ولطافة معناه، وطهارة مغناه. إذ هى السؤال والمأمول، والعذراء البتول، ولكن نظمنا فيها بعض خاطر الاشتياق، من تلك الذخائر والأعلاق. فأعربت عن نفس، تواقة، ونبهت على ما عندنا من العلاقة، اهتماما بالأمر القديم، وإيثارا لمجلسها الكريم. فكل اسم أذكره فى هذا الجزء فعنها أكنى، وكل دار أندبها فدارها أعنى، ولم أزل فيما نظمته فى هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية، والتنزلات الروحانية، والمناسبات العلية، جريا على طريقتنا المثلى، فإن الآخرة خير لنا من الأولى، ولعلمها، رضى الله عنها، بما إليه أشير، ولا ينبئك مثل خبير..». تلك المرأة التى يهدى إليها الكتاب المشار إليه «ترجمان الأشواق» نراها هدفًا حافزا للروح الخلاقة، وهذا أمر يسود الأدب العربى قبل وضع هذا الكتاب، وأبرز مثال على ذلك الكاتب المتقدم على ابن عربى صاحب طوق الحمامة الذى سجل حياته الشخصية الحميمة فى هذا الكتاب[1]، مما يتنافى مع الفكرة السائدة عن المرأة فى الإسلام التى عليها أن تمكث فى البيت كزوجة وأم. إن فتاة ابن عربى، واسمها نظام، تقود هذا المتصوف العظيم إلى الله، فهى الرائدة لشخصيتى بياتريس ولاورا، حيث تقدم

(١) يتحدث ابن حزم بالفعل عن قصة حب له، كما يتحدث عن قصص حب شاهدها وعايشها.

إلينا هذه الفتاة فى صياغة روائية . إن «نظام» تتحدث إلينا فى ترجمان الأشواق كما لو كانت موجودة فى العراق، لكنها عبر التحليق الغنائى تهبط فى مكة حول حدث متواضع لتجربة تتكامل بحق مع التركيبة المعقدة التى تتشكل من: واقع مثالى - واقع تجريبى. هنا تكمن الخلية الأولى لما سيكون بعد ذلك رواية سرفانتس[1] . مع ذلك فإن ابن عربى لا يحاول كتابة رواية، ولم يكن بمكنته، إنما يسعى إلى أن يتسع قلبه لله ولنظام، إلى اللانهائى: الحدث بين المستحيل والممكن بفضل التداخل بين السماوى والإنسانى.

وفى نصوص لابن عربى يشير إلى الحياة «بكامل الكينونة» وهو ما نجده فى الأسبانى Con Toda su Alma »أى بكل جسمه وروحه، هذا لا نجده فى اللغات اللاتينية الأخرى. وفى هذا الدرب من الطموح والمرارة حيث أراد القدر تسييرا للتاريخ الأسبانى فى طريق أداء كل الأشياء بكل كينونة ذلك التاريخ - مضى الأسبان يسيرون بكل النجاحات والفشل لأن العيش «حيا» هو عماد العيش «موتا». إذا تبنينا منظورا شبيها سنفهم أفضل «دون كيخوته»، «وسانشو»، كذلك حياة سانتا تيريزا ولوبى دى فيجا، عمومًا يمكن إدراك المعنى الأكثر أصالة من التاريخ الذى هو ليس - فحسب وببساطة - نتيجة للواقعية الأسبانية أو النزوات الفردية.

إن الأمر يتضح إذا نظرنا إلى محمد وأصحابه، منهم من مضى زاهدًا متصوفا ومنهم من مضى غنيا مسرف الغنى، مسرف العطاء: إفراز للزهد والأبيقورية معا بفضل التكامل السماوى - الأرضى لعقيدة متيقظة لذنوب الروح تيقظها لذنوب البدن، فلا مانع لدى الزاهد من مصاحبة فتاة أو حتى فتى ولا مانع لدى الغنى من الورع والتقوى، هذا ما يحدث فى الإسلام، وفى مقابل ذلك تظل المرأة - غير المسلمة - الأوربية خارج أسبانيا رمزا للخطيئة، كما نرى فى الأدب الدينى للعصر الوسيط. أما الأدب الأسبانى فظل صامتا تجاه المرأة حتى جاءت «سانتا تيريزا» وكتبت عن نفسها وتجربتها[2] ، إذن ينبغى أن نطرح جانبًا الفكرة السائدة: إن المرأة فى الإسلام كانت «قطعة فسيولوجية».

---

(١) يريد رواية دون كيخوته.

(٢) فى الحقيقة كل كتب سانتا تيريزا تعبر عن نتائج تجاربها الروحية لكنها كتبت كتابا ضخما عن قصة حياتها فى ترجمة ذاتية لها اسمه Su vida.

إننا لن نرى فى أى شعر رومانى ولا حتى عند دانتى صورة المرأة والزهرة معا دون تركيب مجازى، ومع ذلك فى تركيب شعرى يشير للمرأة بلحمها ودمها وللزهرة بنباتها ومنبتها، كما يمكن أن نشاهد الشعر العربى وهاكم مثال:

وطائعة الوصال صددت عنها
وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت فى الليل سافرة فبانت
دياجى الليل سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها
إلى فتن القلوب لها دواعى
فملكت الهوى جمحات أمرى
لأجرى فى العفاف على طباعى
كذاك الروض ما فيه لمثلى
سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات
فأتخذ الرياض من المراعى[1]

أخيرا يشير الكاتب للحقائق التالية:

١ - إن الإسلام بلا كنيسة نشأت فيه الحركة الصوفية فتقبلها الناس لعدم وجود سلطة الكنيسة التى كانت تخمد أى حركة من خارجها.

٢ - إن الشاعر الأسبانى الوحيد المعروف - حوالى القرن ١٢ - كتب أشعارا منخفضة القيمة الفنية، ولكنها تتحدث عن معجزات القديسين والعذراء ومعجزات ذلك الشاعر نسخة طبق الأصل من المعجزات التى شاعت عن المتصوفة المسلمين.

ورغم عدم غنائية هذا الشاعر إلا أنه يقحم نفسه فى حكايات المعجزات، أى يتحرك من داخله نحو الخارج - الأسلوب الإسلامى - فى التعبير عن الأشياء.

٣ - إن أغانى ألفونسو العالم كانت فى معظمها تلتزم ببناء الزجل العربى ونظامه ومع ذلك فلم تكن باللغة القشتالية وإنما باللغة الجليقية.

---

(١) نفح الطيب جـ ٢ ص ٤٣٧ (نشرة إحسان عباس).